رسالة إلى ابنة روحيّة

الأب نيكن ڤوروبييڤ

لقد قرأتُ رسالتكِ مرّاتٍ عديدة، وفي كلّ مرّةٍ كان الفكر عينُه يراودني: إنّكِ لا تتّضعين أمام الله، تريدين أن تكوني شخصًا "صالحًا" بنفسك، في الماضي وفي الحاضر، وأن تتقدّمي أمام الله برأسٍ مرفوع. لقد سبقَ لكِ أن لاحظتِ في نفسكِ السقوطَ العامّ في البشريّة كلّها، والذي يؤثّر فيكِ شخصيًّا أيضًا، لكنّكِ لا تريدين أن تتقبّلي ذلك. دائمًا ما يتربّص فكرٌ في داخلكِ: "لماذا أنا رديئةٌ بهذا الشكل، لماذا لم يساعدني أحدٌ كي أصبح 'صالحةً'؟"... ويَصلُ بكِ الأمرُ إلى حدّ اتّهام الله، كما تقولين أنتِ بنفسك.

من هنا تأتي آلامك. فأنتِ، إلى الآن، لا تدركين خطورة سقوط الإنسان، سقوط "الأنا" الداخليّة التي تريد أن تفعل مشيئتها الذاتيّة، حتّى وإن كانت في الصلاح، فبذلك يفقد الصلاح قدرته كلّها تقريبًا. أمّا الله فيُريد من الإنسان أن "ينكر نفسه". إنّ تأكيد "الأنا" في أيّ عملٍ كان، ولو في الصلاح، هو ابتعادٌ عن الله، وهو تاليًا خطيئة. الانزلاق إلى هذه الحالة سهل، أو بالأحرى، ربّما هنا يكمن الأساسُ الخفيّ لكبرياء الإنسان والشيطان. هنا عمقُ السقوط.

قولي للربّ من أعماق قلبك: أنا وحْلٌ وقذارة. ليس في نفسي، ولم يكن فيها صلاحٌ نابعٌ منّي. وكلّ صلاحٍ نلتُه قد أفسَدتُه ولوّثتُه، ولا أقدر على أن أُصلحَ ما أفسَدْتُ (ولا حتّى أريد)، لكنّي أسجُدُ عند قدميكَ كالأبرص والممسوس والمخلّع، متوسّلةً إليك: "ارحمني يا ربُّ وطهّرني كما طهّرتَ الأبرص، لأنّني، مثله، لا أستطيع شفاء نفسي. أقمني يا ربّ كما أقمتَ المخلّع الذي لم يستطع شفاء نفسِه بنفسه، وأنا مثله. اقبلني يا ربُّ كما قبلتَ الابن الضالّ، الذي حصل على حصّته وبدّدَها، خاسرًا بذلك حقّه في الميراث. أنتَ يا ربّ، بمحبّتك التي لا توصَف، اغفرْ لي كما غفرتَ له وقبِلتَه".

دعي جانبًا فكرَ تحسين السلوك، وقِفي عاريةً بالكلّيّة أمام الله قائلة: "هأنذا يا ربّ، كما أنا، لا يفوقُني أحدٌ سوءًا وبشاعةً، لكنّي أعرف أن ما من خطيئةٍ تنتصرُ على رحمتك. لا تصرفْ وجهكَ عني، اِشفني، طهّرني، ولا تطرحني من أمام وجهك، مثلما لم تطرح الابن الضالّ والعشّارين واللصوص...".

إنّ الآلام التي حصلت على الصليب، لا من أجل الصالحين بل من أجلنا نحن الخطأة، هي ضمانتنا أنّ الربَّ لا يطرحُ التائب. وتاريخ خلاص البشر كلّه هو أيضًا ضمانة[1].

تواضَعي، وطارِدي في نفسكِ كلّ علامةٍ للغرور، واطرُديها بغضبٍ مهما كانت الهيئة التي تتّخذها، ومهما كانت خفيّة - وبخاصّةٍ الكبرياء والغرور. إنّ داود وإبراهيم وأيّوب والقدّيسين كلّهم حسِبوا أنفسهم دودَ أرض، وغبارًا، وأسوأ من الشياطين. لماذا؟ لأنّهم دنَوا من النور الإلهيّ، وعلى ضوئه عاينوا طينهم وبُطلانهم. إنْ لم نرَ نحن طينَنا وبُطلاننا، فذلك لأنّنا قد ابتعدنا عن الله؛ وفي دواخلنا، نختبئ من أمام وجه الله، كما اختبأ آدم وحوّاء بعد السقوط. ونعيد الكرّة باستمرارٍ بدلًا من أن نعرّي جراحنا أمام الله ونطلب منه المغفرة والشفاء.

أمّا بالنسبة إلى الأعمال الجسديّة، فإن لم تترافق مع الأعمال الروحيّة، فلا حاجة للتكلّم عليها، لأنّها لن تثير إلّا مزيدًا من الكبرياء. يجب على العمل الجسديّ أن يكون في خدمة العمل الداخليّ، وليس العكس. بإمكان التواضع أن يُخلّص دون الأعمال، أمّا الأعمال دون التواضع فتقود أوّلًا إلى الغرور ("أنا بتول!!")، ثمّ إلى الكبرياء والهلاك. نحن فاسدون إلى درجة أنّه لا يمكننا أن نقرِّب لله أيّة أعمالٍ أو مواهب، لأنّنا عندها سنفتخر حتمًا وندين الآخرين. لقد أعطيَ لنا طريقٌ آخر: التوبة، وتحمُّل الامتحانات المفروضة علينا، وتسليم أنفسَنا بين يدَي الربّ، قائلين: "يا ربّ، حقِّقْ مشيئتكَ المقدّسة فيَّ أنا البائس".

اِغفري لي جرأتي على الكتابة بهذا الشكل، فاعلًا ما يحقُّ لي كأبٍ معرّف. اغفري لي إن كنتُ قد أسأتُ الشرح. واستفيدي ممّا ترينَه نافعًا. يجب علينا استيعاب الأفكار الصحيحة في داخلنا، وألّا نكتفي بفهمها وتوضيبها في زاويةٍ من الذاكرة.

اِغفري لي. ليُبَرِّكِ الربّ ويباركِ.

كالوغا، 1948.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Higoumène Nikon Vorobiev (2015). *Lettres Spirituelles*. In *Grands spirituels orthodoxes du XX^e siècles* (Jean-Claude Larchet, eds.). L'Age d'Homme, Lausanne, Suisse.

[1] الموجود في سير القديسين (المعرب)